عبد الله أبو سنينة

وشاح

2023

عبد الله أبو سنينة

وشاح

لمن رحل

ولمن ظَلّ...

هناك في البعيد، خلف غابة الخيام، كانت الغيوم الحبلى بالمطر تتقدم نحونا بثبات.

أمّا أمام ناظري مباشرة، كان الأستاذ وجدي ينظف لوح زينكو قبل رفعه لسقف غرفة طوبية صغيرة سيستخدمها لتدريس الأطفال.

جئنا إلى هنا البارحة لنساعد في بناء الغرفة قبل دخول الشتاء؛ فالأستاذ يدرك أن التدريس في الخيمة تحت المطر صعب جدًا، عليه وعلى الطلبة. وهو مصرّ على تدريس الطلبة تحت أفضل ظروف ممكنة، ولهذا طلب مني أن أرافقه إلى هنا لأساعده، وأساعد الشبان والأطفال في إنهاء الغرفة.

نظرت إلى الغيوم، وأملت أننا سننجز عملنا قبل هطول المطر.

كان هناك بعض الشبان الذين يساعدون الأستاذ ببعض المهام الثقيلة، مثل حمل الطوب وألواح الزينكو، وأيضًا أربعة أطفال يساعدونهم بالمهام البسيطة كنقل الأغراض المستخدمة في البناء إلى الموقع، ولم يتجاوز الطفل منهم العشرة أعوام.

أخبرني الأستاذ بأن بعض أهل الخير الحريصين على التعليم، ويسمح وضعهم المادي بذلك، سيتكفلون بتكلفة بناء الغرفة، وبأجور العاملين في بنائها، لكنني أعلم أنه لن يأخذ أجرًا على البناء.

أنظر إليه مكبًا على العمل وأدرك أنه يفعل ذلك لما هو أثمن من بعض النقود؛ فهو يرى العلم والعمل وسيلة لرفع نير القهر عن كاهلنا. وعندما طلب مني مساعدته، عرض عليّ مقابلًا ماديًا. رفضت المبلغ لكنني قبلت مساعدته؛ فهو علمني

القراءة والكتابة بالعربية، وقراءة بعض الكلمات بالإنجليزية، والحساب كذلك، وكان كل ذلك تطوعًا. وأعلم كم سيكون التعليم مفيدًا للآخرين، خصوصًا الأطفال. وقبولي مساعدته كان أقل القليل لرد الجميل.

كنت أسأله بعض الأسئلة الخاصة حول حياته قبل المجيء إلى هذا الجانب من النهر، لكنه لم يجب أبدًا بشكل مباشر. فقط عندما أيقن أنني أصبحت أقرأ العربية جيدًا أراني بعض الصفحات من دفتر يومياته وقال لي، "ستجد هنا ما تسأل عنه. لكن هذه لن تكون قصة وجدي وحده. متأكد أنك سمعت الكثير مثلها. ولكن كتابة التاريخ مهم. كتابة قصتي، وربما قصتك يومًا ما، وقصة كل شخص منا ترسم ملامح حكاية شعبنا."

بدأت قراءة أول صفحة من التي أراني إياها من دفتر يومياته، وكانت تعود لقبل ثمان سنوات تقريبًا.

———

الأحد

١٩٤٨/٣/٢٨

قبل الدوام المدرسي...

رغم أن الطقس يزداد دفئًا مع مرور كل يوم، إلّا أن زوجتي رأت أنه كان مناسبًا بدء نهارها بتطريز وشاح لي. لفتني لونه الزيتوني، ولكن تعجبتُ اختيارها بداية الربيع لتطريز وشاح صوفي، بالإضافة إلى شكله الغريب نسبيًا. وبينما كنت أتأكد

من ترتيب الحقيبة التي أحملها إلى المدرسة، سألتُ زوجتي، "ألا ترين يا مريم أن الطقس دافئ على تطريز وشاح صوفي؟"

"لا تنس أن آذار أبو سبع ثلجات كبار. غير أن الجو يمسي باردًا بعد غروب الشمس."

"معك حق، ولكن لو شعرت بالبرد مساءً أرتدي الحطّة. ليست مشكلة كبيرة."

"صحيح، لكن رأيت طراز أوشحة ملفت عندما كنت في القدس، ووددت تطريز شيء شبيه به."

نظرتُ إلى كرة الصوف بين يديها وقلت، "على الأقل اللون كذلك. أقصد أنه ملفت."

"ستراه عندما أنتهي منه. سيعجبك. وأعتقد أن منقذ سيظل نائمًا لساعات، وهذا سيعطيني وقتًا كافيًا للانتهاء منه اليوم."

استدرت ناويًا الذهاب لتقبيل منقذ النائم، إلّا أن زوجتي قرأت أفكاري وهددتني، "لو جعلته يستيقظ لن تحصل على الوشاح!"

هززت كتفي وأجبتها ممازحًا، "لا بأس. الجو دافئ أصلًا."

"وجدي، أرجوك."

هززت رأسي خاضعًا واقتربت منها وقبّلت جبهتها بلطف، ثم اقتربت من طفلي النائم ونظرت نحو وجهه الهادئ لعدة ثوان. وقبل انصرافي إلى المدرسة، أعطيته قبلة على الهواء.

+++

أمّا هواء المخيم الذي أستنشقه الآن فهو ممتزج برائحة الإسمنت المبتل، والذي أملت أنه سيجف قبل وصول المطر. اقتربت الغيوم أكثر، لكنها كانت لا تزال بعيدة، وهذا أعطانا فرصة لاستراحة أخيرة قبل إكمالنا تجهيز الغرفة.

تجمّع الشبان لشرب الشاي، وكان الأستاذ أبو منقذ آخر الجالسين. نظر نحو الغرفة ثم نحو الأطفال الذين جلبوا كرة ليلعبوا بها.

"ألن تشربوا الشاي معنا؟" سألهم الأستاذ.

"لا!" أجاب أحدهم، وشرح، "لن نستطيع اللعب بحال أمطرت، وهذه فرصتنا الأخيرة للعبة قصيرة. ولا تقلق بشأننا أستاذ، معي سلة فيها طعام بحال شعرنا بالجوع."

هزّ الأستاذ رأسه متفهمًا إجابة الطفل ونظر يتفقد الغرفة، ولم يكن ينقص سوى رفع ألواح الزينكو، وبعض التشطيبات النهائية. كان هناك ثلاثة ألواح زينكو فقط، وغالب التشطيبات كانت داخل الغرفة، أي أنه يمكن القيام بها حتى لو أمطرت.

ورغم أن الغيوم كانت بعيدة، إلّا أنني لم أعد بحاجة لنفث الهواء بكأس الشاي لتبريده.

———

الأحد
١٩٤٨/٣/٢٨
بعد الدوام...

أحاول أن أظهر متفائلًا أمام طلبتي، حتى لو كان الوضع القائم يدعو لعكس ذلك. وأعتقد أن ذلك ينطلي عليهم، لكن غالب كبار السن يعرفون أن القادم أسوأ.

أمرّ أمام منزل الحاج أبو موسى مرتين يوميًا على الأقل. مرة صباحًا عند ذهابي إلى المدرسة، ومرة عندما أعود بعد الظهيرة. وعادة ما يكون مستظلًا تحت إحدى أشجاره المزروعة بحديقة صغيرة أمام بيته. اليوم كان يستريح تحت ظل لوزة مثمرة.

ألقيت عليه السلام بينما كنت أسير، لكنه استوقفني، "إلى أين أنت ذاهب؟ لم الاستعجال؟"

نظرت إليه مستفسرًا، ليقوم عن كرسيه ويقترب مني طالبًا أن انتظر لوهلة. نظر الحاج أبو موسى تجاه أحد ابنائه وأمره، "يلّا يا ولد. اصعد إلى اللوزة والتقط بعضه للأستاذ!"

"الله يسعدك، لا تغلّب نفسك ولا تغلّب الولد!" قلت له.

"سامحك الله يا أستاذ أبو منقذ، كلها بضعة لوزات لك ولزوجتك وابنك."

هززت رأسي شاكرًا. دقيقتين وإذ بابن الحاج يضع دلوًا ملأه لوزًا أمامي.

"شكرًا لك يا حاج، شكرًا لك يا صبي!"

"هذا أقل ما يمكنني تقديمه لرجل محترم مثلك. ألق التحية على مريم."

حملت حقيبتي بيد والدلو بالأخرى. وضعت الدلو أرضًا حتى أطرق باب بيتي.

لا تفتح مريم الباب على مصراعيه عادة، فهي تحب الوقوف به لثوان، تعيقني من الدخول. فعلى حد قولها تريدني أن أشبع من النظر إليها وهي جميلة قبل أن تكبر. تقول هذا الكلام منذ ثلاث سنين، ولكن على عكس كلامها، هي تزداد جمالًا مع مرور كل يوم. أكثر من ألف مرة وقفَت بالباب ترحب بي، وكل مرة أشعر كشعور النظرة الأولى. لا أتكلم بسرعة؛ فلو فعلت، ستخرج الكلمات متلعثمة، غير منتظمة، كدقات قلبي عند رؤية بريق نظراتها. وأعلم أنني لن أعتاد على ذلك؛ فكلما تفتح لي الباب، كأنها تفتح لي قلبها من جديد. على كل، عندما أتاحت لي الدخول لاحظت أن منقذ كان يمشي بخطوات غير متزنة، لكنه يضحك فخرًا حتى عندما يقع.

يقع الطفل مئات المرات قبل أن يستطيع المشي باتزان، وأتساءل أحيانًا إن كنا نفقد إرادة النهوض بعد السقوط عندما نكبر، أم هل بعض السقطات تتركنا أضعف من أن نقوم مجددًا؟

دخلتُ البيت وأغلقتُ الباب خلفي واتجهتُ نحو منقذ وقبّلته، "هذه بدل القبلة الصباحية التي حرمَتني منها أمك!" ثم نظرت تجاهها لأرى ردة فعلها.

رمقتني بنظرة متحدية وهددَت، "سأحرمك من أشياء أخرى لو استمررت بمزاحك هذا!"

"مثل أية أشياء؟"

"أنت تعرف قصدي." توقفت مريم عن الكلام لثوان ثم سألَت بنبرة جادة، "كيف الوضع؟"

نظرتُ إلى دلو اللوز وأجبت، "الوضع لوز."

"أنا جادة. أجبني!"

هززت رأسي أحاول طرد الأفكار التي تدور فيه حول الوضع القائم هنا، وزوجتي أذكى من أن أعطيها إجابة كاذبة مطمْئنة. حاولتُ إيجاد كلمات مناسبة لأخبرها إياها، لكن صمتي كان كافيًا لتعرف سوء الوضع.

هزّت رأسها متفهمة صمتي، وقالت تحاول تلطيف الأجواء، "لقد أكملت الوشاح. سأريك إياه!"

داعبتُ منقذ، وكنت أحاول تعليمه أن يقول اسمي، لكن دون نجاح. استطعت أن أعلّم عديد الأطفال والكبار كيفية القراءة والكتابة، لكنني إلى الآن أفشل في تعليم ابني قول اسمي؛ فلغته لم تتجاوز لغة الأطفال غير الواضحة بعد. بعد دقيقتين عادت أمه مع الوشاح الزيتوني.

"ها هو،" قالت، حاملة الوشاح الذي تزيّن بحرف 'دبليو' بالإنجليزية، دون أن تعطيني إياه لأجربه. أكملَت، "لم يذهب تعليمك لي سدى. طرّزت حرفك على الوشاح."

"شكله فريد، يجب عليّ الاعتراف. بالإضافة إلى أنه حرفي وحرف ابني كذلك؛ فلو قلبنا حرف 'دبليو' سيصبح حرف 'إم'، الحرف الأول من اسم منقذ."

"صحيح! هذه لفتة لغوية لطيفة في لغتهم. على الأقل يوجد شيء إيجابي يتعلق بالإنجليز."

ابتسمتُ لتعليقها للحظات قبل أن أشعر بابتسامتي تختفي عندما تذكرتُ أنني أفضّل لو لم أكن بحاجة أن أسمع لا بالإنجليز ولا بلغتهم على قدومهم لأرضنا وكونهم سببًا رئيسًا لحياتنا البائسة. نظرتُ إلى منقذ الذي أنهكه السقوط المتكرر فقرر اللعب قليلًا وهو جالس على الأرض، وأخبرت نفسي بأنه ليس كل شيء حولنا يدعو للبؤس.

+++

بعد أن استأذن أبو منقذ للذهاب لقضاء حاجته بالحمام الخاص بالغرفة، والذي بنيناه منفصلًا عنها بأمتار قليلة، أشرت للشباب بأن نقوم برفع ألواح الزينكو لتغطية السقف؛ فذلك الجزء الأكثر إرهاقًا بالعمل كله، ولم نكن لنقبل أن يقوم به الأستاذ ونحن بالمكان. ولكن قبل رفعنا للوح، جاء شيخ يشتاط غضبًا ومعه شاب يحمل عصا، والشرر بعيونهم. أسرع الشيخ تجاهنا وهو يقول للشاب المرافق له، "يلّا يا ابني!" تسمّرت أنا والشبان عندما أدركنا أن عملنا كان سبب غضب الشيخ والشاب. بدأ يصيح بنا، "اتركوا ألواح الزينكو!"

نظرنا ببعضنا البعض ولم أحر ردًا لكلامه. نظرت إلى الغيوم التي كانت تقترب منا باستمرار، وخمّنت أننا نملك قرابة الساعة لإنهاء العمل، ولكن تدخُل الشيخ قد يطول.

"ماذا هناك يا حاج؟" سأل أحد الشبان، بينما كان يسند لوح الزينكو الأول على جسده يستعد لرفعه على السقف، بمساعدة شاب آخر كان يقف على سطح الغرفة.

حملق الشيخ بالشاب على السطح وأمرَه، "انزل!" ثم نظر نحو الشاب الذي يسند لوح الزينكو وقال له بحزم وهو يشير تجاهه بسبابته، "لن ترفع هذا اللوح!" بعدها نظر إلى بقيتنا وإلى لوحَي الزينكو الآخرين يتفقدهما. نظر الشيخ بوجه ابنه، والذي بدوره هزّ رأسه يمينًا وشمالًا، وأشار إلى اللوح الأول الذي كان أحد الشبان على وشك رفعه. اقترب الشيخ من الشاب وأمره مجددًا، "لا ترفع هذا اللوح!"

"لمَ لا؟" سأله الشاب.

بدأ صبر الشيخ ينفذ فصاح بالشاب، ""لمَ لا؟" سأخبرك لما لا!"

كان كلام الشيخ مجبولًا بالأسى، ورغم أن الموقف لم يكن يدعو لذلك إلى هذا الحد، إلّا أنه كمفتاح يفتح الباب على لحظات أشد قسوة. وخلال الفترة التي أساعد فيها الأستاذ، لا أفكر بأمر أكثر قسوة مما حصل معه قبيل مجيئه إلى هنا.

———

الجمعة

١٩٤٨/٤/٢

بعد صلاة الفجر...

أكتب عن هذا اليوم أكثر من أسبوع بعد حصوله؛ فكتابة ما حصل خلاله ثقيل عليّ. هذه اليوميات خاصة بالأساس، وما فائدة تذكّر شيء أحاول إبعاده عن ذهني؟ لكن ما حصل الجمعة الفائتة بدير ياسين غيّر رأيي حول هذه اليوميات؛ فالآن أرى

الكتابة عنّا مسؤولية جماعية، وما أكتبه عمّا حصل معي هو قطعة واحدة لصورة من عدة قطع تُظهر ما حصل معنا... ولا يزال.

بزغ ضوء النهار، لكن قرص الشمس لم يكن ظاهرًا بعد. طَرَق أحمد، ابن عمّي، بابي. كنت أذهب معه إلى الصيد أحيانًا، وأراجع ما علّمته إياه من حروف.

انتبهَت مريم إلى صوت طرق الباب، واقترحَت بينما كانت لا تزال متمددة على الفراش، "هل تريدني أن أصنع لكما الشاي؟"

"كلا، حبيبتي. عودي إلى نومك."

"حسنًا. لا تتأخر. سأنتظرك حتى نشرب الشاي معًا."

"موافق. لن أتأخر عليك. أعدك!"

لكن ليست كل الوعود يوفى بها...

أحمد في الخامسة أو السادسة عشرة من عمره، ولم يعد يذهب إلى المدرسة؛ فهو تفرّغ تمامًا لمساعدة والده في رعاية الأغنام لعدم وجود أخوة له، وهو يهوى الصيد كذلك، ويبيع معظم الطيور التي يصيدها.

"أتعلم يا أستاذ،" بدأ أحمد حديثه عندما كنا بالطريق إلى جبل يصطاد فيه، ويبعد عن القرية حوالي أربعين دقيقة مشيًا.

"ماذا هناك؟"

"كيف يمكنني أن أخبر فتاة بأني أحبها؟"

توقفت مكاني لثوان وسألته، "هل هذا سؤال فرضي أم هناك فتاة معينة؟"

"لا أعلم. أقصد... ربما... في الحقيقة... هي مجرد... مشاعر. رغم أنني صغير بالسن، إلّا أنني، لا أعلم صراحة، ربما... أشعر بأني قادر على حمايتها... فأنا ماهر باستخدام البارودة الآن."

"أعلم أنك قناص جيد. المهم، هل أنت متأكد بأنك تحبها؟ هل تحبك هي كذلك؟"

"نعم. أظن ذلك. شبه متأكد... أنها تحبني... فهي تقول لي صباح الخير معظم الأيام."

ضحكت عندما سمعت إجابته، ولتلعثمه كذلك، لكنني غطيت ضحكتي واستأنفت المشي ولم أرد عليه، ليكمل، "وقبل يومين قالت لي 'صباح الخير يا أحمد!'"

"ذكر اسمك مع تحية الصباح مؤشر قوي لحب الفتاة لك."

"هل تستهزئ بي؟"

"أبدًا. لكن والدك يبحث عن عروسة الآن، الله يرحم أمك، وليس مناسبًا أن تتزوج قبله. بالإضافة إلى أنني أرى أن تركز الآن على عملك."

هزّ رأسه موافقًا قبل أن يقول، "حسنًا. لكن سأهديها أجمل طائر أصيده اليوم."

من الأفضل لأحمد أن يصيد عددًا كبيرًا من الطيور كي يبيعها، لكن يومها لاحظت أنه لم يبحث عن اصطياد أعداد كبيرة بقدر

بحثه عن طائر جميل يصلح كهدية لمحبوبته. وعندما فعل، صاح فرحًا، "هذا لك يا زهرة!"

دون أن يتكلم معي، وضع الطير بقفص واتجه لفكّ عدّة الصيد، وكأنه أنجز المهمة، رغم أنني لم أراجعه بكل الحروف التي درّسته إياها. على كل، رؤيته متشوقًا لإهداء الطائر لزهرة جعلتني أتناسى أنه لم يراجع كل ما يمكن مراجعته يومها. ساعدته بحمل العدّة واتجهنا عائدين إلى القرية منتشيين بتغريدات الطائر.

تحوّل غناء الطير إلى صراخ عندما كنا على مشارف القرية. ظننت لوهلة أن الطائر اكتشف أخيرًا أنه داخل قفص. لكن بعد ثوان لاحظنا أن صراخ الطائر امتزج بصراخ قادم من القرية. نظرت بوجه أحمد لأتأكد أنه سمع الصوت نفسه، وعندما تكون بقرية لا يتجاوز سكانها المئتين وخمسين فأنت تعلم أن أي مصيبة تحصل لأي فرد في القرية ستؤثر عليك؛ فأنت تعرف كل سكانها إمّا قرابة، أو نسبًا، أو صداقة.

هرعنا إلى القرية وأول ما وجدناه كانت أغنام عمّي أبو أحمد، وكان بعضها مرميًا على الأرض التي كانوا يرعون بها والدماء تسيل منهم، تغطي العشب الأخضر الطويل. لم يأخذ الأمر أكثر من ثانية حتى أدركت ما حصل: مرّت العصابات الصهيونية المسلحة من هنا.

ثوانٍ أخرى ووجدنا جثة عمّي بين العشب، وكانت سبابته على زناد بارودته. سقط أحمد يمسك والده يحثّه على الاستيقاظ. هزّه من صدره يستحلفه أن يستيقظ، ولم يتركه حتى

بعدما تخضبت يداه بالدماء النازفة من صدر والده. "لم تركتني وحيدًا؟" سأل الجثة الهامدة. "لماذا؟ لماذا؟" وعندما لم يسمع إجابة وضع رأسه بجانب رأس والده يحتضنه، وقال، "لم أسمعك. ها أنا اقتربت. أجبني! لماذا تركتني وحيدًا؟"

كانت ركبتاي ترتجفان، لكنني تماسكت نفسي من السقوط. كنت أود أن أظل مع أحمد أهدئ من روعه قدر الإمكان، لكنني كنت لا أزال أسمع الصراخ قادمًا من القرية، فأدركت أن عمّي ليس الضحية الوحيدة.

لم تترك مريم باب البيت مفتوحًا أبدًا، وعندما رأيته كذلك كأن بابًا فُتح على أسوأ كوابيسي. ركضت نحو الباب لأجد أغلفة طلقات نارية أمامه.

كانت العادة أن أجد مريم تستقبلني بكل ودّ عند باب البيت، لكن عندما دخلته حينها لم أر سوى السواد. لحظات وتكيّف نظري لأجدها، لكن لم تكن باستقبالي. كان جسدها على الأرض، ظهرها لي، وطلقتان مزروعتان بظهرها بجانب بعضهما كأنهما عينان تنزفان.

اعتدت أن أكتب ما أشعر وأمر به بشكل شبه يومي، لكن بعض الأمور لا تكفي الكلمات للتعبير عنها، وربما لذلك وُجد الصراخ. وهناك صراخ مثل الذي كنت أسمعه قادمًا من الخارج، وهناك النوع الآخر، النوع الذي لجأت إليه... الصراخ الصامت.

لم تعد ركبتاي تتحملان فسقطت جاثيًا عندها. قلبت جسدها فإذ بذراعيها تحيطان بمنقذ، الذي ما أن رآني صاح مبتهجًا، غافلًا عمّا حصل للتو، "وَدّي! أبّا!" كانت تلك أوضح

مرة يقول فيها اسمي. ولم يصَب منقذ بأذى، فأمّه حمته بجسدها.

لم ينقطع الصراخ القادم من الخارج، وخفت أن ينتبه منقذ لذلك فحاولت القيام لإقفال البيت إلّا أن جسدي خانني. كيف لا يخونني ومن كان سندي صار جثة هامدة أمامي! قرّبت جسدها مني وكان لا يزال دافئًا على عكس عينيها اللتان فقدتا بريقهما. ذلك البريق الذي كان شمسًا بسمائي، وبغيابه، أمست دنيتي حالكة. قرّبت أصابعي من وجهها وأغمضت عينيها، وكنت أتمنى أنني سأفتح عينيّ على صوت طرقات أحمد على بابي، وأن أكتشف أن ذلك كله كان كابوسًا. كان كابوسًا بالفعل، لكنه ليس واحدًا نراه بنومنا بل واحدًا نعيشه.

ظللت بجانب زوجتي وابني لدقائق، عالمًا أنها المرة الأخيرة التي سنفعل ذلك معًا.

حتّى في أحلك اللحظات، لم تتوان مريم عن حماية ابننا، ولهذا كان عليّ أن أتأكد أن تضحياتها لم تذهب سدى. أمسكتُ يد منقذ واستجمعت قواي وقمت عن الأرض، وعندما نظرت بالباب رأيت شكلًا ظليًا لفتى يحمل بارودة تكاد تسبقه طولًا.

"الله يصبّرك!" جاء صوت أحمد مكتومًا، ورمى بمسدس تجاهي.

+++

اقترب ابن الشيخ من والده رافعًا العصا التي معه. مشيرًا إلى لوح الزينكو، استمر الشيخ بالصياح بوجه الشاب، "اترك هذا

اللوح مكانه! هذا اللوح لي. لن أسمح لك بسرقته! فهو حقي وأنا لا أسمح لأحد بسرقة حقي!"

لم تخرج كلمة 'حقي' من الشيخ بالشدّة ذاتها التي خرجت الكلمات التي سبقتها؛ فهي كادت تكون مخنوقة. أدار الشيخ رأسه نحو الخيام والغرف الطوبية التي تحيط به، فطأطأ رأسه صامتًا نحو الأرض. هو بالتأكيد أدرك أنه لا يقصد ما قاله؛ فكيف يقصده وهو خسر كل ما لديه ولم يستطع مواجهة السارق؟ ولو سألته عما خسر لن يكون للوح الزينكو من ذكر؛ فهو لا يقارن بما خسره قبل المجيء إلى هنا، وقبل حاجته إلى ألواح الزينكو من الأساس. ربما كان يكره لوح الزينكو ذلك حقًا؛ فالشيخ، كأي فلّاح، لن يختار أن يكون لوح زينكو فوق رأسه بدلًا من معرش الدوالي أو شجرة لوز مخضرة. لكن ربما جاء احتجاجه الأوليّ لأخذ اللوح منه كردة فعل بأنه لن يفقد كل شيء، وأنه سيقاتل كي يحافظ على ما لديه. أو بشكل أدق، ليحافظ على ما يستطيع المحافظة عليه، لكن نظراته حوله فضحته بأنه يشعر بأن ما يحيط به الآن لا يستحق عناء القتال. وهل هناك حزن على ضياع الفتات بعدما سُرق الرغيفُ!

خرج الأستاذ وجدي من الحمّام وكان واضحًا أنه سمع كل ما دار. بدأ حديثه بهدوء مع الشيخ، والذي كان يدير ظهره للأستاذ، " لا تقلق يا حاج أبو موسى... نحن لا نأخذ حق أحد!"

استدار الحاج نحو الأستاذ مستغربًا، "هذا الصوت ليس غريبًا! أستاذنا أبو منقذ الغالي!"

اقترب الحاج من الأستاذ واحتضنه، وأطالا العناق عن قصد، فلا بد أن لحظات العناق تلك أعادت لهما ما يمكن إعادته

من الماضي، الماضي الذي يود جميعنا أننا لا نزال نعيش فيه. هي لحظات قليلة لكنها تذكّرهم بالكثير، والذكريات ضمن الأشياء القليلة التي لا تستطيع الترسانة العسكرية والعصابات المسلحة سرقتها، وكانت تلك أثمن ما يملكه معظمنا.

"أستغفر الله!" قال الحاج بعدما فكّا عناقهما.

رفع الأستاذ حاجبه نحو الأطفال مستفسرًا عن المكان الذي جاؤوا منه باللوح، ليظلوا صامتين لوهلة قبل أن يتكلم أحدهم، "ظننا أنه لا يريده أحد. فهو كان متسخًا جدًا..."

ابتسم الحاج لرد الطفل، ثم أشار لابنه بمساعدتنا بإكمال البناء بعدما نظر تجاه الغيوم التي كانت تقترب مع كل لحظة، وقال، "حسنًا. أكملوا عملكم، وسأجلب لكم الشاي."

"لقد شربنا لتونا!" رد أحد الشبان.

"فلتشرب مرة أخرى!" قال الحاج وهو يمشي مبتعدًا.

الجمعة

١٩٤٨/٤/٢

بعد دفن الشهداء...

بعيد غروب الشمس، وبعد انتهائنا من دفن الشهداء التسعة، تناقشنا حول الفعل الأنسب بالساعات القادمة. قرر المعظم البقاء في القرية رغم المخاطر الذي يحملها ذلك القرار؛ فلم يكن هناك ضمان من عدم عودة العصابات المسلحة للقرية، وقرر قسم آخر الذهاب إلى قرى أخرى اعتبروها أكثر أمانًا. أما نحن، من

زار الموت عائلاتهم، قررنا ترك البلاد والذهاب إلى ما وراء النهر.

وضّبنا الذكريات قبل المتاع، وكنا نتمنى لو كان بالإمكان دفن ذكرى ذلك اليوم مع جثامين الشهداء. حمل كل منا مأساته وانطلقنا تحت ضوء الهلال الذي أبان ملامح الطريق أمام أعيننا، إلّا أن قلوبنا كانت مظلمة؛ فالشعور بالقهر وقلة الحيلة قتل شيئًا ما فينا، فأمسينا نمشي منطفئين مثل ظلال في عتمة.

لم أرتدِ الوشاح الزيتوني أمام مريم، لكنني ارتديته عندما انطلقنا. لا أعلم سبب ارتدائي إياه بالضبط: هل كان برودة الجو بالمساء، أم رغبتي بتذكر بهجة مريم عندما كانت تطرزه، أم ربما لحاجتي للمس شيء يحمل عطرها.

حمّلنا النساء والأطفال والمتاع على الأحصنة، أما الرجال فترجلنا الطريق، وكنا نركب حصانًا واحدًا بالتناوب لنأخذ قسطًا من الراحة. على كل، لم يقبل أحمد أن يركب الحصان ويراني أترجل بادئ الأمر، إلّا أن إصراري أقنعه بضرورة إراحة قدميه. قلت له، "لن نستطيع الوصول الليلة بأي حال من الأحوال، وعلينا أخذ قسط من الراحة، وستكون أنت ممن يسهر لتفقد محيطنا. لهذا عليك أن ترتاح."

هزّ رأسه مقتنعًا.

كلما سنحت له الفرصة، التفت أحمد تجاه زهرة، والتي فقدت أخاها يومها. وبعد وقت اقترب مني وسألني، "أعلم أنك كنت

تحب مريم. ربما أكثر من حبي لزهرة، وأعلم أنك تتألم لفراقها. لكن هل أنت نادم لمعرفتها بعد الفراق؟ هل تتمنى أنك لو لم تعرفها بعدما شعرت بهذا الألم؟"

"زواجي بها كان الفعل الأكثر صوابًا في حياتي."

ابتسم أحمد لإجابتي واتجه نحو أحد الأحصنة التي تحمل المتاع، وحمل القفص الذي يحتوي على الطائر الذي اصطاده صباح تلك الجمعة، ثم اقترب من الحصان الذي كانت تركبه زهرة. لم أسمع ما دار بينهما، ولم أستطع تمييز ملامح وجهيهما. انتقل تركيزي إلى الحصان الذي كان منقذ يركبه برفقة امرأتين أخريين. انتبهت أنه كان مستيقظًا فطلبت من إحداهن أن تعطيني إياه.

مسكت يده الصغيرة وجعلته يمشي بجانبي لأمتار قليلة، وكان سعيدًا لتحسن مشيه؛ فهو لم يعد يسقط كما كان يفعل قبلها بأيام. لاحظت أن الجو أصبح أكثر برودًا فخلعت الوشاح عن رقبتي وألبسته إياه. وتخيلت ذراعا أمه تحتضنه؛ فما زال عطرها على الوشاح.

بعد دقائق أعدت منقذ للسيدتين وواصلنا المسير.

عند منتصف الليل تقريبًا، وصلنا لتل عند سفحه أشجار كثيفة، وكان هناك مفرق يتفرع إلى ثلاثة طرق. ارتأى أحد الرجال أن نتوقف هناك لدقائق، وأشار أنه سيقضي حاجته. وافقنا على كلامه، وذهب بعضنا لقضاء حاجته كذلك.

بينما كنت أسير مبتعدًا عن الآخرين، باحثًا عن صخرة أو شجرة أستتر بها عند قضاء حاجتي، هرول أحمد ليلحقني، وقال، "لقد ابتسمَت عندما أعطيتها العصفور."

ربّتُّ كتفه مهنئًا، ونظرت إلى الخلف تجاه من كان عند الأحصنة لأرى أنهم لا يستطيعون رؤيتي، وبالكاد كان صهيل الأحصنة مسموعًا.

"سأقضي حاجتي أنا أيضًا،" قال أحمد واتجه نحو شجرة أبعد من تلك التي اتجهت أنا لها.

ابتعد عني حوالي ثلاثين مترًا، ولكن مع الهدوء المحيط استطعت سماع بكاء أحمد. كان واضحًا أنه يحاول كتمه، لكنه لم يستطع. رغم علاقتي المقربة منه، إلّا أنه فضّل الابتعاد عني ليبكي، وهذا أحزنني عليه أكثر؛ فعلى ما يبدو أنه أصبح وحيدًا أكثر مما ظننت بادئ الأمر.

انتهيت من قضاء حاجتي، لكنني فضّلت انتظاره، لكن طالت المدة أكثر من المعتاد بكثير، وهو لطالما ذهب لقضاء حاجته عندما كنا نذهب للصيد معًا، ولم يأخذ أبدًا حتى نصف تلك المدة.

على كل، لم أرغب باستعجاله، ولم أتحرك من مكاني إلّا عندما سمعت خشخشة قادمة من اتجاه الشجرة التي استتر بها. انتظرت لثوان أخرى لكنه لم يظهر. اقتربت من مكانه عدة أمتار فسمعت خشخشة مرة أخرى، لكنها لم تكن قادمة تمامًا من مكان أحمد.

"ضبع!" قلت لنفسي، وأخرجت المسدس الذي أعطاني إياه ذلك النهار.

كنت على وشك المناداة عليه وإخباره بأن لا يقلق بحال سمع صوت عيار ناري، ولكني حسبت رعب من بقي عند مفرق الطرق عند سماع صوت إطلاق النار، ولهذا ترويت قليلًا واقتربت من مصدر الخشخشة.

ما حصل كان عكس ما توقعت، فصوت إطلاق النار جاء من الخلف، من مكان استراحة من بقي عند المفرق.

"ضباع!" فكرت بنفسي، "هذا سيرعب الأحصنة وسيجعلها هوجاء!"

حاولت العودة مسرعًا تجاههم لكن صوت الخشخشة اقترب مني، فانتظرت الضبع أن يظهر وأنا مشهر المسدس تجاهه.

صوت إطلاق الرصاص عند المفرق لم يتوقف، وكان أكثر من ذلك... كان تبادل إطلاق نار!

ظهر شابان مسلحان أمامي وصاحا بلغة الغرباء، وقبل أن يشهرا رشاشيهما أطلقت النار على أحدهما، ولكن الثاني سقط كذلك. حينها رأيت أحمد خلفه مشهرًا بارودته والدخان يتصاعد من فوهتها.

"الآخرين!" صرخ أحمد، وتحت أزيز الرصاص، هممنا بالركض تجاههم قبل أن يسقط صارخًا، "كاحلي!"

سحبته بسرعة واختبأنا خلف صخرة، وكنا نعلم أنه من السهل إيجادنا. كان خدشًا، ولم تستقر الرصاصة بكاحله. كتم صراخه وحضّر بارودته لإطلاق النار مجددًا. استعددت أنا كذلك، فأصوات أقدام المسلحين كانت تقترب.

لاحظت أن صوت تبادل النيران عند مفرق الطرق توقف، وخفت أنه تم القضاء على كل من كان هناك. حاولت أن أرّكز على القادمين تجاهنا، وكيف سنحاول الصمود ضدهم، لكن صورة منقذ مقتولًا احتلت رأسي.

"كم رصاصة لديك؟" سألني أحمد.

"خمس."

"حاول إصابة الرأس إذن!"

لم يفقد تركيزه حتى في تلك الظروف، وكان يفكر بمنطقية حول كيفية التخلص من أفراد العصابة.

وبما أنكم تقرأون هذه اليوميات الآن، فأنتم تعرفون أنني نجوت، وسأخبركم من الآن أن أحمد نجا كذلك. لكن من نجا لم يكن أحمد ذاته، وكأنه مات ثم أعيد بعثه بشخصية جديدة بعد ذلك النهار. نظر إليّ ببرود وقال لي بحزم لم أعهده خلال أحاديثه السابقة معي، "اهدأ!"

وضع البارودة على الصخرة وقنّص تجاه الأشجار التي تتحرك خلفها بعض الظلال. غطيت أذني بيدي وكتمت نفسي. أطلق رصاصة كاد صوتها يخرق أذني المغطاة. ورغم الطنين الذي دوّى بأذني إلّا أنني كنت قادرًا على سماع أنين صادر من المكان الذي أصابه أحمد. ثانية بعد ذلك، طلقة أخرى... أنين آخر. لكن عندها بدأ الرصاص يُطلق تجاهنا، فتوقف أحمد عن إطلاق الرصاص واحتمينا بالصخرة.

"سأبدّل مخزن الذخيرة الآن!" أنبهني، فأدركت أنه يقصد بأن عليّ أن أغطيه، وأن أحاول منع تقدم أفراد العصابة المسلحين. أطلقت أربع رصاصات باتجاه المسلحين فهدأ

هجومهم لوهلة. كدت أطلق المزيد من الرصاص لكنني تذكرت أنني لم أعد أمتلك سوى رصاصة واحدة، ففضّلت تركها لوقت لاحق.

انتهى أحمد من تلقيم بارودته. لم نستطع رؤية أي من المسلحين الذين توقفوا عن إطلاق الرصاص، لكنهم كانوا لا يزالون هناك فلم نتحرك.

كان هاجس إيجاد منقذ مقتولًا لا يفارقني، وبدا ذلك عليّ؛ فطلب مني أحمد مرة أخرى أن أهدأ. نظرت بوجهه مليًا، وكأنه لم يكن ذلك الشخص نفسه الذي أخبرني بحبه لفتاة قبلها بساعات فقط. على عكس تلعثمه حينما أخبرني عن زهرة، كانت أنفاسه منتظمة، وكلماته مختصرة ومنتقاة بعناية بينما كنا نحتمي بالصخرة.

"لقد سمعت صوت إطلاق رصاص عند المفرق. هناك مسلحين غير هؤلاء،" قال وهو يشير نحو الأشجار التي كنا نراقبها.

هززت رأسي موافقًا.

خفنا أن يأتي بقية المسلحين من خلفنا، لكن بعد ثوان رأينا ظلالًا تتحرك وتقترب من المسلحين المختبئين خلف الأشجار. لم يكن عددهم كبيرًا جدًا، لكن نحن على اليد الأخرى، لم نكن سوى اثنين، غير أننا لم نمتلك الكثير من الذخيرة.

تحركنا بهدوء خلف الصخرة، وانتقلنا لصخرة أكبر وأبعد قليلًا عن الأشجار من الصخرة السابقة. لم يكن من الذكاء أن نبدأ إطلاق النار عليهم؛ فذلك سيفضح مخبأنا الجديد.

لحظات وسمعنا سقوط شيء عند الصخرة التي كنا خلفها قبلها بدقائق، وإذ بها قنبلة يدوية انفجرت وقلبت الصخرة من مكانها. حينها بدأت تتسارع أنفاس أحمد، واتضح أننا حوصرنا.

صرخ المسلحون فرحًا بعد دويّ انفجار القنبلة. تقدم ثلاثة منهم نحو مكان الانفجار وكانوا مكشوفين لنا لو أردنا إطلاق النار عليهم، لكن كنا نعلم أننا لو أطلقنا النار عليهم سنفضح مكاننا، غير أننا لن نكون قادرين على القضاء على المختبئين خلف الأشجار.

على الرغم من ذلك، ظننا أنه لا مفر من المواجهة معهم؛ فعندما يقتربون من مكان الانفجار ولا يرون أثرًا للجثث، سيمسحون المنطقة المحيطة بحثًا عنّا، وعندها لا مفر من المواجهة. عندما كان الثلاثة على بعد عشرة أمتار من الصخرة، أخرج أحدهم قنبلة أخرى ورماها، وأنزلوا رؤوسهم للاحتماء، وتزامنًا مع لحظة انفجار القنبلة، قام أحمد من خلف الصخرة وأطلق رصاصتين أسقطت إثنين منهم قبل أن تعلق بارودته. لم أنتظر أكثر فأطلت عنقي من وراء الصخرة لأحدد مكان الثالث، ثم أطلقت عليه الرصاصة الأخيرة فسقط قتيلًا.

نظرنا ببعضنا فعلمنا أنه لا مجال للمقاومة بعد ذلك؛ فبارودته عالقة ولن يستطيع إصلاحها دون فضح مكاننا، غير أن ذلك سيأخذ وقتًا طويلًا. وأنا على الجهة الأخرى، لم يعد معي أية رصاصة. اتجه نظرنا بعدها نحو الظلال خلف الأشجار، وكان واضحًا أنهم لم يكونوا أكثر من ثلاثة. بدا أنهم

ترددوا بالخروج من خلف الأشجار عندما رأوا زملائهم مقتولين على الأرض، دون علمهم مصدر الرصاص.

لحظات ورأينا الظلال تنسحب بعيدًا.

لم نتحرك بسرعة من خلف الصخرة، وعندما فعلنا ذلك بعد قرابة عشرين دقيقة، اقتربنا من جثث المقتولين واستولينا على أسلحتهم.

اتكئ أحمد على كتفي، وعدنا نحو مفرق الطرق نخشى الأسوأ. من بعيد، رأينا بعض الجثث على الأرض، لكن لا أحصنة.

كان هناك أربعة من رجالنا على الأرض، وواحد منهم لا يزال يحتضر.

وضعت أحمد أرضًا واقتربت من الرجل وسألته، "ماذا حصل يا أبو خليل؟" وكان نظري يدور يمينًا وشمالًا بحثًا عن الآخرين، وخصوصًا منقذ. لاحظ أبو خليل ذلك فطمأنني، ووجدت الأمر غريبًا أن يكون الذي يحتضر هو من يطمئن السليم، "لا تقلق! إنهم بخير. لقد هربوا دون إصابات."

"من أي طريق ذهبوا؟"

رفع يده يشير لي تجاه الطريق، لكنها لم ترتفع سوى سانتيمترات فوق صدره المدمي قبل أن تسقط، ويخرج نفسه الأخير.

نظرت تجاه أحمد وهززت رأسي. ربما لو وصلنا قبل دقيقة لعرفنا أين ذهب الجميع.

عدت إلى أحمد، وتفقدت إصابته، وكنت أعلم أنه حتى لو علمنا أي طريق سلكوا، فلم يكن عندنا القدرة على اللحاق

بهم. نظرنا تجاه الجثث المرمية على الأرض وفكرنا بما علينا فعله: دفنها، أم تركها وكسب الوقت لإكمال طريقنا.

"كيف سنجدهم؟" سأل أحمد.

"لنجد من يضمد جرحك الآن،" أجبته وساعدته على النهوض، قبل أن أكمل، "من السيء أن تنزف المزيد من الدماء!"

تاركين الجثث خلفنا بين أحضان الليل، بدأنا نسير إلى ما وراء النهر، موقنين أن بعض الجروح لا يمكن تضميدها.

+++

كان هناك بعض الصفحات الأخرى من تلك التي أشار أنني أستطيع قرائتها في يومياته، لكنني لم أفعل. أعدت له الدفتر رغم أنني كنت أرغب ببعض الإجابات. وكأنه قرأ أفكاري أجابني باقتضاب، "بحثت عنهم في المخيمات لشهور بعدما وصلت هنا. وأسأل كل طالب من أي قرية جاء. لكن دون جدوى إلى الآن."

اكتفيت بإجابته ولم أسأله عن ذلك الأمر مجددًا.

أمّا بالنسبة لبناء الغرفة، أمسى التحكم بالألواح صعبًا بفعل الرياح العاتية التي كانت تزيحها يمينًا وشمالًا، بالإضافة إلى شعورنا بالبرد. لم تكن الغيوم فوقنا مباشرة بعد، لكن البرد والعتمة سبقاها.

نجحنا بالانتهاء من رفع الألواح وتثبيتهم على السقف قبل وصول المطر الذي بدا أنه سيتأخر قليلًا.

احتمى الأستاذ وجدي من الرياح عندما جلس أمام غرفة قريبة من الغرفة التي أنجزناها لتوّنا. وجلس على يمينه أحد الأطفال الذين ساعدونا بالبناء.

كان نظر الأستاذ مثبتًا على شماله تجاه الغرفة التي سيدرّس بها، وعليه أمارات الرضا. لم يأبه لبعض آثار الغبار التي كانت على ملابسه، فعلى ما يبدو، نشوته بإنجاز الغرفة أنسته ذلك. وربما كان لإنجاز الغرفة مفعول أكبر من مجرد جعله ينسى إزالة الغبار، فهي ساعدت بإزالة الهموم عن باله، حتى لو لوقت قصير. علت ابتسامة واسعة وجهه. لم تكن ابتسامته مصطنعة؛ فهو لم ينتبه أنني كنت أراقبه، وعندما يبتسم الشخص بينه وبين نفسه تكون الابتسامة صادقة. وابتسامة واحدة في الظل أصدق من ألف في الضوء. وبدا أن لا شيء قادر على إزاحة نظر الأستاذ عن الغرفة.

أمّا نظري فاتجه ناحية يمين الأستاذ، حيث جلس أحد الأطفال، والذي ظهر أنه بدأ يشعر بالبرد؛ فهو وضع سلة صغيرة بجانبه وبدأ يتفقدها بينما كان يضم كتفيه إلى صدره بسبب البرد. أخرج من السلة وشاحًا صوفيًا ولفّه حول عنقه. ورغم العتمة التي حلّت بسبب الغيوم الكثيفة التي غطت الشمس، وقِدم الوشاح، إلّا أنني ميّزت لونه الزيتوني، وكنت كذلك قادرًا على تمييز تطريز عليه على شكل حرف 'دبليو' والذي إذا قلبته يصبح حرف 'إم'.

****

صفحة الكاتب على غودريدز:
https://www.goodreads.com/author/show/13_527607.Abdullah_Abu_Snaineh

أعمال مجانية أخرى للكاتب على مكتبة نور:
https://www.noor-book.com/u/Abdullah-Abu-Snaineh/books